دراسة لبعض مظاهر البيئة اللغوية في الكتاب

(مقدَّم إلى المؤتمر الدولي السادس بعنوان :

سيبويه إمام العربية)

الذي نظمه قسم النحو والصرف والعروض

في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

يومي الاثنين والثلاثاء ٢٢-١٤٣١/٣/٢٣هـ الموافق ٨-٢٠١٠/٣/٩م

أعده: تركي بن سهو بن نزال العتيبي

(قدمت هذا العمل في الجلسة الأولى للمؤتمر يوم الاثنين ٢٢/٣/١٤٣١هـ، وقدمت النسخة المصححة وفيها تعديلات أخبرت الزملاء القائمين على المؤتمر بها، ولكن نشرت النسخة الأولى في كتاب المؤتمر التي لم تعدل، وإنما هي مسودة هذا العمل ولذا نشرت النسخة المصححة مرة أخرى).

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة لبعض مظاهر البيئة اللغوية في الكتاب

(نقل سيبويه المسموع إلى مكتوب يقارب ذلك المسموع، وقرئ المكتوب على غير وجهه في أصله المنطوق به أولاً)

الملخص

دوَّن سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً من اللهجات العربية في الكتاب، وعزا كثيراً من هذه اللهجات إلى أهلها، وهناك لهجات أخرى بنى عليها أبوباً كاملة في الكتاب لم تعز إلى قبيلة معينة، وربما قيَّد بعض هذه اللهجات بقوله: وقالت العرب، ومن العرب من يقول، وسمعنا بعض العرب يقول، وحكى الخليل أن من العرب من يقول، وقال عيسى بن عمر من العرب من يقول، هذه اللهجات التي ذكرها سيبويه في الكتاب مازالت في بيئاتها الأولى حتى اليوم حيّة على ألسنة أهلها في البيئة نفسها، ولكن هناك عاملان للنظر فيهما:

الأول: انحسار بعض بيئات هذه اللهجات انحساراً كبيراً، وضيق مساحة هذه اللهجات التي كانت واسعة في يومٍ من الأيام، مما يخشى عليه انقراض لهجات عربية صحيحة للتغير الصوتي فيها أثر كبير في التغير الدلالي.

الثاني: التطبيق اللغوي الصحيح للهجات تراعي التغيرات الصوتية في النطق وتصحيح كثير من أوهام الرسم الكتابي في الضبط اللغوي.

وهذا ما سوف أعرضه من خلال أسئلة أجيب عنها في هذا العمل بإذن الله تعالى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين أما بعد :

فلم يكن الدرسُ النحويُّ واللغويُّ بدعاً من العلوم في منهجيَّته العلمية، ولم يكن مفارقاً لها، بل كان سابقاً لكثيرٍ من العلوم النظرية في تحديد مجال البحث تحديداً دقيقاً، توَّج ذلك بهذا الرصيد الضخم من علوم العربية التي نمت وترعرت في بيئة لغوية محددة، وكان لهذا التحديد أثرُه الإيجابيُّ في الضبط الدقيق، على الرغم مما يقال : إنَّ النحويين الأوائل ضيعوا جزءاً مهمّاً من اللغة بتحديد القبائل التي أخذوا عنها .

وكان لسيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ السبقُ بأن يكونَ كتابُه أوَّلَ كتابٍ جامعٍ لمسائلِ العربيَّةِ يصل إلى أيدي الناس، ولم يصل من كتب النحو كتاب قبله، ولكنَّ كتبَ التراجم تحملُ أسماءَ مؤلفاتٍ كتبت قبل الكتاب، ومادة الكتاب كلُّها منقولةٌ، وليس فيها نصٌّ واحدٌ على كتاب مدوَّن نقل عنه سيبويه، وإنما يروي عن أهلِ العلمِ ونقلةِ اللغةِ والسماعِ عن العرب .

طبعَ الكتابُ عدةَ طبعاتٍ، ولم تتباينْ هذه الطبعاتُ تبايناً يدلُّ على جهدٍ لناشريها غير النشرة الأولى، وإنما تركَّز عملُ المحقِّقينَ على الإخراجِ بمقتضياته المختلفةِ وعلى الفهرسةِ أيضاً، وهي أعمالٌ يغني بعضُها عن كثيرٍ منها، أعني أنَّ الناشرين بعدَ الطبعةِ الألمانية الأولى وطبعة بولاق لم يقفوا على نسخٍ أخرى تحلُّ كثيراً من الإشكالاتِ أو تضيفُ إلى النصِّ الموجودِ نصوصاً أخرى، وبخاصةٍ أنَّ المنقول عن سيبويه أكثرُ من المطبوعِ، ولم يفِ المطبوعُ بجميعِ المنقولِ، مما حداني إلى القولِ : إنَّ النسخةَ المغربيَّةَ من الكتابِ تختلفُ عن نسخةِ أهلِ المشرقِ، لوجودِ نصوصٍ في كتبِ النحوِ الأندلسيِّ ليستْ موجودةً في جميعِ النسخِ المطبوعةِ، وهي قطعاً ليستْ أوهاماً في نقلٍ؛ لكونها نصوصاً كثيرةً من الكتابِ الذي أخذوه بالروايةِ عن الأئمة وبأسانيدَ عاليةٍ، كلُّ هذا يقفُ الباحثُ أمامَه احتراماً وتقديراً،

ومما يؤكِّدُ هذا الأمرَ ما وردَ في نسخةِ أبي إسحاقَ الزجَّاجِ المحفوظة في تركيا، التي تضمنت نصوصاً غيرَ قليلةٍ، ليست في الكتابِ المطبوعِ بجميع طبعاتِه المتعددةِ.

لن أتحدثَ كثيراً عن الكتابِ ونسخِه وطبعاتِه، فيكفي من القلادةِ ما أحاط بالعنقِ، وهذه الإشارةُ ربما أتْبعتُها في قابلِ الأيَّامِ بكتاباتٍ أخرى حولَ هذا الموضوعِ، بإذنِ اللهِ تعالى.

وقد قسمتُ هذا العملَ على مباحثَ، جاءتْ على النحو الآتي:

المبحثُ الأوَّلُ:

البيئةُ اللغويةُ التي صارتْ مجالاً للدرس النحوي حُدِّدَتْ مكاناً وزماناً، أمَّا مكانُها فقد قالَ السيوطيُّ ـ رحمَه اللهُ تعالى ـ: "كانتْ قريشٌ أجودَ العربِ انتقاءً[1] للأفصحِ من الألفاظِ وأسهلِها على اللسانِ عند النطقِ، وأحسنِها مسموعاً وإبانةً عمَّا في النفسِ، والذين عنهم نُقِلَتِ اللغةُ العربيَّةُ، وبهم اقتدي، وعنهم أُخِذَ اللِّسانُ العربيُّ من بينِ قبائلِ العربِ هم قيسٌ وتميمٌ وأسدٌ، فإنَّ هؤلاءِ هم الذين عنهم أكثرُ ما أخذَ ومعظمه، .... ثمَّ هذيلٌ وبعضُ كنانةَ وبعضُ الطائيين، ولم يؤخذْ عن غيرِهم من سائرِ قبائلِهم..."[2].

ثمَّ ذكرَ الذين تُرِكَتْ لغتُهم فلم يؤخذْ عنهم فقالَ: "وبالجملةِ فإنَّه لم يؤخذْ عن حضريٍّ قطُّ، ولا عن سكَّانِ البراريِّ ممن كان يسكُنُ أطرافَ بلادِهم التي تجاورُ سائرَ الأممِ الذين حولَهم، فإنَّه لم يؤخذْ لا من لخمٍ ولا من جذامَ، فإنَّهم كانُوا مجاورين لأهلِ مصرَ والقبطِ، ولا من قضاعةَ ولا من غسَّانَ ولا من إيادَ، فإنَّهم كانُوا مجاورين لأهلِ الشام وأكثرُهم نصارى.... ولا من تغلبَ ولا من النَّمرِ، فإنَّهم كانُوا بالجزيرةِ مجاورينَ لليونانيَّةِ، ولا من بكرٍ؛ لأنَّهم كانُوا مجاورينَ للنبطِ

(١) الأصل: انتقاداً، والصواب ما أثبته.

(٢) الاقتراح ٥٦، تحقيق د. أحمد محمد قاسم.

والفرسِ، ولا من عبدِالقيسِ لأنَّهم كانُوا سكَّانَ البحرينِ، مخالطينَ للهندِ والفرسِ، ولا من أزدِ عمانَ لمخالطتِهم للهندِ والفرسِ، ولا من أهلِ اليمنِ أصلاً لمخالطتِهم الهندَ والحبشةَ، ولولادةِ الحبشةِ فيهم، ولا من بني حنيفةَ وسكَّانِ اليمامةَ، ولا من ثقيفٍ ولا من سكَّانِ الطائفِ لمخالطتِهم تجَّارَ الأممِ المقيمينَ عندهم، ولا من حاضرةِ الحجازِ"(١).

هذه هي البيئةُ الأولى التي تمَّ رصدُ اللغةِ فيها، وجمعت من أفواهِ العربِ الأقحاحِ بعد تحديدٍ دقيقٍ للمكانِ، وشروطِ الصحةِ والسلامةِ بصورةٍ علميَّةٍ دقيقةٍ، وتمَّ استبعادُ القبائلِ التي لم تستوفِ لغتُها هذه الشروطَ التي قنَّنها النحويُّون المتقدِّمون، وتظهر بصورةٍ دقيقةٍ قيمةُ الدقةِ والتحري والتثبت في سلامة المقدمات والنتائج المترتبةِ عليها.

أمَّا التحديدُ الزمانيُّ لهذه اللغةِ، فقد حدّدوا آخرَ الحججِ من الشعراءِ بإبراهيمَ بنِ هرمةَ المتوفى سنة (١٧٦هـ) وكلامُ العربِ المنثورِ إلى منتصفِ القرنِ الرابعِ الهجريِّ.

وإذا دقَّقتَ النظرَ وجدتَ البعدَ المكانيَّ والبعدَ الزمانيَّ قد حدّدا تحديداً دقيقاً، ولهذا فإنَّ هذه البيئاتِ ولهذه الأسبابِ التي ذكرَ النحويُّون أنَّها علةٌ للتحديدِ احتفظت بكثيرٍ من خصائصِها اللغويةِ زمناً طويلاً، فتجدُ البنيةَ والصوتَ والدلالةَ ما زالت حيَّةً في بيئاتها الأصليةِ، وبصورةٍ دقيقةٍ جدّاً تحاكي ذلك المكتوبَ منطوقاً منضبطاً في مستوياته الثلاثة.

المبحث الثاني:

ذكر سيبويه بعضَ اللغاتِ في الكتاب غير معزوّةٍ إلى قبيلةٍ معينةٍ، وهي لغاتٌ غيرُ مستهجنةٍ، وبها قرأ بعضُ القرَّاءِ من السبعةِ، وله أوجهٌ من العربيةِ كثيرةٌ، وسوف أقفُ مع بعضِ هذه اللهجاتِ التي ما زالتْ مستعملةً حتى الآن في بيئتها

(١) المصدر السابق ٥٦-٥٧.

الأولى؛ من ذلك الآتي:

* قال سيبويه: هذا بَابُ ما يحذَفُ من الأسماءِ في الوقفِ التي لا تذهبُ في الوصلِ، ولا يلحقُها تنوينٌ[١].

قالَ ـ رحمَه اللهُ تعالى ـ في هذا البابِ: "وتركُها في الوقفِ أقيسُ وأكثرُ؛ لأنَّها في هذه الحالِ؛ ولأنَّها ياءٌ لا يلحقُها التنوينُ على كلِّ حالٍ، فشبهوها بياءِ قاضي؛ لأنَّها ياءٌ بعدَ كسرةٍ ساكنةٌ في اسمٍ، وذلكَ قولُك: هذا غلامْ، وأنت تريدُ: غلامي، وقد أسقانْ وأسقنْ، وأنت تريد: أسقاني وأَسْقِني؛ لأنَّ (ني) اسمٌ، وقد قرأ أبو عمرٍو (فيقولُ: ربِّ أكرمَنْ) و(ربِّي أهانَنْ)"[٢]، واستشهدَ في هذا البابِ بقولِ النابغةِ الذبيانيِّ:

إذَا حَاوَلْتْ في أَسَدٍ فُجُوراً فإنِّي لَسْتُ منكَ ولسْتَ منْ

وقولِه أيضاً:

وهمُ وردُوا الجفارَ على تميمٍ وهمْ أصحابُ يومِ عكاظَ إنْ[٣]

واستشهد أيضاً بقولِ الأعشى:

فهلْ يمنعنِّي ارتيادي البلا دَ من حذرِ الموتِ أن يأتينْ

ومن شانئٍ كاسفٍ وجهُه إذا ما انتسبتُ له أنكرنْ[٤]

ولا بدَّ من الإشارةِ هنا إلى الآتي:

أولاً: ما زالتْ هذه اللغةُ موجودةً حتى الآن، على هذه الصورةِ التي ذكرها سيبويهِ، وبخاصَّةٍ في ديارِ عبسٍ وذبيان، والتي منها الجواء، وتحتويها منطقةُ القصيم في وسط نجد.

(١) الكتاب ٢/ ٢٨٩ (بولاق) ٤/ ١٨٥ هارون.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٨٩ (بولاق) ٤/ ١٨٥-١٨٦ هارون.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٨٩ (بولاق) ٤/ ١٨٦، والجفار في وسط نجد الآن قرب القويعية، من منازل تميم قديماً، وعلى قرب منها الآن، وسكنها بنو خالد، وبعض بني زيد من قحطان.

(٤) الكتاب ٢/ ٢٩٠ (بولاق) ٤/ ١٨٦-١٨٧.

ثانياً: ورودُ هذه اللغةِ على لسانِ الأعشى، وهو من بني قيسِ بنِ ثعلبةَ، من أهلِ منفوحة، وبها دارُه وقبرُه كما ذكرتْ كتبُ التراجمِ، ومنفوحةُ هذه صارتَ حيّاً من أحياءِ مدينةِ الرياض، ووسط المدينةِ القديمةِ، وتعرَفُ باسمها (منفوحة) حتى الآن، وفي شمالها شارعٌ يعرَفُ باسمِ شارعِ الأعشى، يقالُ: إنَّ قبر الأعشى في أوَّله من جهةِ الغرب، أخلصُ من هذا التحديدِ إلى أنَّ هذه اللغةَ التي تحذفُ ياءَ المتكلِّم مع بقاءِ النونِ ساكنةً ليستْ خاصَّةً بأهل القصيم كما يعتقدُ بعض الباحثين المعاصرينَ، بلْ كانت لغةً موجودةً في لسانِ أهل منفوحة، لكنَّك الآن لا تجد شيئاً منها في هذا المكانِ، وإنما حلَّ مكانها شيءٌ من بعضِ لهجاتِ تميم التي ذكرها سيبويهِ في الكتاب.

وإذا نظرْتَ بينَ البيئتين اللتين ذكرهما سيبويه تجد منطقةً واسعةً كانت تتحدَّثُ كلُّها بهذه اللغةِ، ثم انحسرتْ انحساراً شديداً حتى صارت موجودةً في أغلب منطقة القصيم فقط.

ثالثاً: هذه اللهجةُ وردت في ثلاثٍ وثمانين آيةً، كما ذكر ذلك أستاذي وشيخي د. محمد عبدالخالق عضيمة ـ رحمه الله تعالى ـ.

قالَ سيبويه ـ رحمَه اللهُ تعالى ـ: هذا بابُ السَّاكنِ الذي تحرِّكُه في الوقفِ إذا كانَ بعدَه هاءُ المذكَّرِ الذي هو علامةُ الإضمارِ ليكونَ أبينَ لها كما أردْت ذلك في الهمزة(١).

* قالَ في هذا البابِ: "وذلكَ قولُكَ: ضَرَبَتُهُ(٢)، واضرِبْه، وقَدُهْ(٣)، ومِنُه،

(١) المصدر السابق ٢/٢٨٦-٢٨٧ (بولاق) ٤/١٧٩.

(٢) هذا الضبطُ غيرُ صحيحٍ في الطبعتين، أمَّا في ط بولاق فقد أسكنَ الهاءَ مع ضمِّ التاءِ وثلاثِ فتحاتٍ قبلَها، والعربُ لا تجمع أربعَ حركاتٍ متواليةٍ، وصوابُ نطقِها في لهجةِ أهلِها الآنَ إسكانُ الباءِ، وط هارون بثلاثِ فتحاتٍ بعدَها ضمتين، وهذا غيرُ صحيحٍ لذهابِ موضعِ الشاهد الذي نصّ عليه سيبويه في العنوان.

(٣) هكذا ضبطت في الطبعتين، ويفهم منها أنَّها اسمُ الفعلِ قدي بمعنى حسبي، وهذا غيرُ صحيحٍ، ولعلَّ الصوابَ الموجود في لهجة أهل هذه المنطقة أنها فعلُ أمرٍ من الفعل قادَ يقودُ قدْن وهو يوافقُ عنوانَ البابِ؛ لأنَّ ما قبلَ الهاءِ يجبُ أن يكونَ ساكناً، وهذا هو المستعملُ حتى الآن.

وعَنْهْ، سمعْنا ذلكَ من العربِ، ألقَوا عليه حركةَ الهاءِ حيثُ حرَّكوا لتبيانها "(١).

هذه اللغةُ التي جعلَها سيبويهِ عنواناً لبابٍ من أبوابِ الوقفِ في كتابه، لكونِ هذه الهاءِ تشبهُ هاءَ الوقفِ التي تزادُ، وهي ليستْ هاءَ وقفٍ، وإنَّما هي هاءُ الضميرِ للمذكَّرِ الغائبِ، وهي مضمومةٌ، وتنقلُ حركتُها إلى ما قبلَها، وما زالَتْ موجودةً حتى الآنَ، ولكنها آخذةٌ في الانحسار لسببين: الأوَّل: هجرةُ كثيرٍ من أهلِ المنطقةِ، ومخالطتهم أهل مدنٍ أخرى، فانعكسَ ذلك على أبنائهم الذينَ لا يزورون منطقتَهم إلا نادراً. الثاني: البثُّ الفضائيُّ المقلقُ الذي بدأَتْ آثاره على اللغةِ بوضوحٍ بعد مضيِ أقلَّ من عقدينِ من الزمنِ، فانعكسَ ذلك انعكاساً سيِّئاً حتى على الذين لم يخرجوا من تلك المناطقِ، وبخاصة جيلين هم جيلُ الشبابِ وجيلُ الصغار الذين بعدَهم مباشرة.

* قالَ سيبويه: "وزعمَ أبو الخطَّابِ أنَّ ناساً من العربِ يقولون في الوقفِ: طلحتْ، كما قالوا في تاءِ الجميعِ قولاً واحداً في الوقفِ والوصلِ".

لم يعزُها أبو الخطَّابِ ولا سيبويه إلى أحدٍ، وهذه اللهجةُ توجدُ في شمالِ نجدٍ وجنوبِها، أمَّا في الشمالِ فيتكلَّمُ بها فخذ من قبيلةِ شمر، يقالُ لهم: الغيثةُ، واحدُهم غيثيٌّ، وما زالوا يستعملونها حتى الآن بالتاءِ وصلاً ووقفاً، أمَّا في الجنوبِ فبعضُ قحطان يستعملونُها الاستعمالَ نفسَه حتى اليومِ، فما زالَتْ لهجةً صحيحةً في نطقِهم بهذه الصورةِ.

* قالَ سيبويه: هذا بابُ ما يبيِّنونَ حركتَه وما قبلَه متحرِّكٌ

قالَ في هذا البابِ: "فمن ذلكَ الياءُ التي تكونُ علامةَ المضمرِ المجرورِ، أو تكونُ علامةَ المضمرِ المنصوبِ، وذلكَ قولُكَ: هذا غلامِيه وجاء من بعديه، وإنه ضربنيه".

هذه اللهجةُ يتكلم بها أهلُ تهامة، وبعضُ قبيلةِ زهران من عاليةِ السراةِ، وهذيل

(١) الكتاب ٢/٢٨٧ (بولاق) ٤/١٧٩ هارون.

اليمانية، وبعضُ أهلِ يبرين شمالَ الربعِ الخالي مما يلي الأحساءَ، وبعضُ أهلِ الأحساء يقولون: أمّيه، وبعضُ الكلمات يستعملونها هذا الاستعمالَ، والفرقُ بين الاستعمال في جهة الحجاز والاستعمال في شرقِ نجد مما يلي الربعِ الخالي أنَّ الاستعمالَ الحجازيَّ يأتي بالياءِ ساكنةً، بخلافِ الاستعمال في الأحساء فإنهم يحرِّكونَ الياءَ بالفتحِ، وهي وإنْ كانتْ لهجةً واسعةً في يومٍ من الأيام إلا أنَّ انحساراً كبيراً عرض لبيئاتِ هذه اللهجاتِ للأسبابِ التي ذكرتُها سابقاً، ولأسبابٍ أخرى منها النقدُ اللغويُّ اللاذعُ في مجتمعاتِ غيرِ هذه اللغاتِ، مما يجعلُ الشبابَ يُحْجمونَ عن استعمالِ كثيرٍ من اللغةِ خشيةَ نقدِ الأقرانِ لهم من جهةٍ، وظنُّهم أنَّها عاميّاتٌ لا تصلحُ كلاماً عربيّاً، وبعد ذلك تنحسرُ حتى ينقرض من يتكلَّمُ بها.

المبحثُ الثّالثُ:

* قالَ سيبويه ـ رحمَه الله تعالى ـ: "فأمَّا ناسٌ كثيرٌ من تميمٍ وناسٌ من أسدٍ فإنَّهم يجعلونَ مكانَ الكافِ للمؤنَّثِ الشينَ؛ وذلكَ أنَّهم أرادُوا البيانَ في الوقفِ"(١).

ثمَّ قالَ: "وقومٌ يلحقونَ الشينَ ليبيِّنوا بها الكسرةَ في الوقفِ، كما أبدلُوها مكانَها للبيانِ، وذلك قولُهم: أعطيتكش وأكرمكش، فإذا وصلُوا تركُوها"(٢).

سيبويه ذكر هنا لغتين؛ الأولى أنَّ من العربِ من يبدلُ الكافَ في خطابِ المؤنَّثِ شيناً، وهي لغةٌ موجودةٌ لعددٍ من القبائلِ الموجودةِ في جنوبِ الربعِ الخالي وغربه. والثانيةُ أنَّ منهم من يلحقُ الكافَ شيناً، وهي لغةٌ لبعضِ العجمان والمرة، واحدُهم عجميٌّ ومريٌّ.

وحقيقةُ اللغةِ الثانيةِ أنَّهم يُشْرِبُون الكافَ شيناً، فليست كافاً محضةً، ولا شيناً

(١) الكتاب ٢/٢٩٥ (بولاق) ٤/١٩٩ هارون.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٩٦ (بولاق)، ٤/١٩٩-٢٠٠ هارون.

محضةً، ولا يستطيعُ نطقَها غيرُ أهلِها، هي في لهجتِهم جيدة، وصورتها واضحةٌ، والإشرابُ فيها بيّنٌ.

ذكر هذه اللغة السيوطيُّ نقلاً عن الفراء(١).

وما زالت هاتان اللغتان شائعتينِ في ألسنةِ أهلهما حتى اليوم، بهما يتحدثون ويتفاهمون.

فهما لغتان إحداهما تقوم على البدلِ، والثانيةُ تقومُ على إشرابِ حرفٍ حرفاً آخرَ، والمزجُ بينهما، ليتولَّدَ صوتٌ ثالثٌ بينَ بينَ، وقريبٌ من هذا وصفُ د. إبراهيم أنيس لهذا الصوتِ بقوله: " ويتكوَّنُ هذا الصوتُ الواحدُ من عنصرينِ: أولُهما ينتمي إلى الأصواتِ الشديدةِ، وهو ما يشبهُ التاءَ، وثانيهما: إلى الأصواتِ الرخوةِ وهو ما يشبهُ الشينَ "(٢).

* وقالَ سيبويه ـ رحمَه الله تعالى ـ: "واعلمْ أنَّ ناساً من العربِ يلحقُونَ الكافَ السينَ؛ ليبيِّنوا كسرةَ التأنيثِ، وإنَّما ألحقوا السينَ لأنَّها قد تكونُ من حروفِ الزيادةِ في استفعل، وذلكَ: أعطيتكس ـ كذا ـ وأكرمكس، فإذا وصلُوا لم يجيئوا بها؛ لأنَّ الكسرةَ تبينُ "(٣).

---

(١) انظر: الاقتراح ١٩٩.

(٢) في اللهجات العربية ١٢٣، ط. الخامسة، ثم عقَّب عليها بقوله: وهذا الصوتُ هو نفسُ ما سمعَه القدماءُ في تلك الظاهرة التي سمَّوها (الكشكشة) كما أنَّه نفسُ الصوت الذي نسمعه في بعضِ اللهجاتِ الحديثةِ بمصر " الصفحة نفسها. وقال مثل هذا د. كاصد الياسريُّ عند حديثه عن الكشكشة فقالَ: " وهذا الصوتُ الذي سمَّوه كشكشةً هو نفس الصوتُ الذي نسمعُه اليومَ في لهجاتنا العراقية، وكلامُنا اليوميُّ المتداول، فنحن نقول (جف) و (جان) و (عليك) – بثلاث نقط أسفل الجيم – ونريد: كف وكان وعليك، وهي لهجة شائعة في شمال العراق إلى جنوبه، خلافاً لما ذكره د. رمضان عبد التواب من أنها لا تزال مسموعة في جنوب العراق " فقه اللغة العربية؛ كاصد الياسري ٢٣٥.

ومن خلال معرفتي بهذه اللهجات في ألسنة أهلها هي قريبة من الكشكشة، ولكنها ليست هي نهائيّاً، ويدرك هذا من عاش البيئتين، النجدية والعراقية.

(١) الكتاب ٢/٢٩٥-٢٩٦ (بولاق) ٤/١٩٩ هارون.

وهنا عدَّةُ أمورٍ:

أولاً: الكسكسةُ ليستْ في الكافِ وحدَها كما ذكرَ النحويّون واللغويُّون، بل الذين يتكلمُون بالكسكسة يتكلمون بها في حرفينِ سجَّلَ النحويون واحداً وأغفلُوا الآخرَ، ذكروا الكسكسة في الكاف، وتركوها شبيهتها في القاف، والقافُ أختُ الكاف، إلا أنَّ بينَهما فرقاً يسيراً، وهو أنَّ الكافَ تشربُ سيناً، والقافُ تشربُ زايا، فيقولون: قدر (بإشراب القاف زايا) ويقولون: قت كذلك، وإشراب القافِ زايا عربيةٌ قديمةٌ، منها ما رواه البخاريُّ في صحيحِه عن أبي موسى: فإن أهدى لك حمل تبنٍ أو حملَ شعيرٍ أو حمل قت، والتبنُ والشعيرُ معروفانِ من علف البهائم، أمَّا التبنُ فهو ما يبقى بعد الحنطةِ والشعيرِ بعد ذروهما. والقتُّ بإشراب القاف زايا هو علفٌ للبهائم أيضاً، ويعرف أيضاً باسم البرسيم(١)، وهو قسيم التبنِ في العلف، ولا يعرفُ القتُّ علفاً إلا بإشراب القاف زايا، فإن نطقتها قافاً محضة لم تعطِ الدلالة المرادةِ منها، وإنما ستكون من القتِّ الذي هو النميمة.

والقتُّ على هذه الصورة بإشراب القاف زايا(٢) ما زالت مستعملة بهذا الصوت وهذه الدلالة في نجد عامة، ولا لبس فيها، وهي القزقزةُ صراحةً واضحة.

ثانياً: أشارَ سيبويهِ ـ رحمَه الله تعالى ـ إلى أنَّ الكسكسةَ في الوقفِ، فإذا وصلوا لم يجيئوا بها، والذي أعرفُه من لسانِ القومِ الآن ـ وهي ما زالت موجودة ـ أنها تكونُ وصلاً ووقفاً، وليستْ خاصّةً بالوقف كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثالثاً: أشارَ السيوطيُّ إلى أنَّ الكسكسة في ربيعةَ ومضرَ يجعلونَ بعد الكافِ أو

(١) وهناك من يقلب القاف جيماً معطشة، فيقول في البرسيم: جت. انظر: دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية؛ ت.م. جونستون ١٠٧، وأقول: هذه لهجة أهل الأحساء، وبعض بني تميم الآن ينطقونها جتّاً يعنون به البرسيم.

(٢) ولذا أقترحتُ أن تسمى هذه اللغةُ القزقزة؛ وهي إشراب القاف زايا، كما كانت الكسكسةُ إشرابَ الكافِ سيناً والكشكشةُ إشرابَ الكافِ شيناً، فلتكن هذه اللغة القزقزة.

مكانَها في المذكرِ سيناً، وقصدوا بذلك الفرقَ بينهما(١)، وعلّق على هذا المحقِّقُ بقوله: أي الفرق بين كافِ الخطابِ التي تكونُ للمذكَّرِ، والتي تكونُ للمؤنَّثِ، فالتي للمؤنثِ يكونُ فيها الكشكشةُ، والتي للمذكَّر يكونُ فيها الكسكسةُ، وذلك كأن تقول في (أبوك) وأمك: أبوس وأمس، وفي عليك: عليس(٢).

وهنا عدة أمور؛ منها: أنَّ الكسكسةَ ليست سيناً بعد الكافِ ولا مكانَها، وسيبويه عبارتُه دقيقةٌ حينَ قالَ: يلحقونَ الكافَ سيناً.

وأنَّ الكسكسةَ إنَّما هي إشرابُ الكافِ سيناً، ولا أعرفُ من خلالِ تتبعي البيئاتِ التي تنطقُ الكسكسةَ من ينطقُ مكانَ الكافِ سيناً، إلا في حالِ من كانَ عنده عيبٌ في النطقِ فتختفي عنده بعضُ الحروفِ، وبخاصَّةٍ المركَّبةَ تركيباً يمتزجُ فيها الحرفانِ، وهذا من عيوبِ النطقِ كاللثغِ والتأتاةِ ونحوِها مما لا يعدُّ وجهاً في المسألةِ.

وأنَّ الكسكسةَ في كافِ الخطابِ تكونُ للفرقِ بينَ المذكَّرِ والمؤنَّثِ، فيقولونَ للمذكَّرِ: عليك بكاف صحيحة، ويقولون للمؤنثة: عليك(س)، بالكسكسة.

وأنَّ الكسكسةَ قد تدخلُ الكافَ وليست حرفَ خطابٍ، كقولِهم: كيف أنت؟ وينطقونُها بالكسكسةِ أيضاً.

وعلى هذا فكلامُ المحقِّقِ غيرُ دقيقٍ حين علَّقَ بأنَّ الكشكشةَ للمؤنَّثِ والكسكسةَ للمذكَّرِ، لأنَّ الذين يتكلَّمون الكشكشةَ غيرُ الذي يتكلَّمون الكسكسةَ، وهم من بيئتين مختلفتين(٣).

---

(١) انظر: الاقتراح ١٩٩.

(٢) انظر: الاقتراح ١٩٩ ح ٢.

(٣) تحدثت كتب فقه اللغة، وكتب الأصوات عن هاتين اللغتين، وعن نسبتهما إلى بعض القبائل، وعن الخلط بينهما نسبة وأداء، وفيها تفصيل، لا يدخل في الموضوع الذي أريده وهي البيئة التي تحدث عنها سيبويه فقط ن والصورة المسموعة لهذه اللغة.

بقيَ أمر أخير أنَّ الذينَ يتكلَّمونَ الكسكسةَ هم أهلُ القزقزةِ، فتشترك هاتان اللغتان في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما إشرابٌ، فالكسكسةُ إشراب الكافِ سيناً، والقزقزةُ إشرابُ القافِ زاياً.

المبحث الرابع:

* ذكر سيبويه من النسبةِ التي جَرَتْ على غيرِ القياسِ أسماءُ بعضِ القبائلِ فقالَ: "فمن المعدولِ الذي هو على غيرِ القياسِ قولُهم في هذيل: هُذَليٌّ، وفي فقيمٍ كنانةَ: فُقَميٌّ، وفي مليحٍ خزاعة: مُلَحيٌّ، وفي ثقيفَ: ثَقَفيٌّ "(١).

هذيل قبيلةٌ معروفةٌ تسكنُ الطائفَ حتَّى الآن، وفقيمُ كنانةَ قبيلةٌ حجازيةٌ، وهم غير أبناء فقيم بن دارم بن حنظلة بن مالك من تميم، ومليح من خزاعة، وخزاعة قبيلة حجازيةٌ أيضاً، ومنهم عمرو بن لحي أحد سدنة البيت، وأول من عبد الأصنام وبدل الحنيفية.

أذكر هذا لأبينَ أنَّ أسماءَ هذه القبائل التي ذكرَها سيبويه وعدَّ النسبة إليها بحذف يائها غيرُ قياسٍ يعني أنَّها شاذةٌ، هي قبائلُ حجازيَّةٌ جاءت على وزن فُعيلٍ أو وزن فَعيلٍ، وعدَّ النحويون بعده ذلك من شواذِّ النسبِ.

والنحويون جعلوا النسبة إلى باب فَعيلة بحذف الياء بشرطين قياساً فنسبوا إلى حنيفةَ حنفيٌّ، وفُعَيلة بشرط وجعلوا النسبة إلى جُهينةَ: جهنيّ، والفرقُ بينهما وبين فَعيل وفُعَيل هو زيادة التاء فيهما.

وأقول: إنَّ القبائلَ الحجازيّةَ التي جاءت على فَعيلٍ أو فُعيل نسبَ إليها كلِّها بحذفِ الياء، ومنها قُرَيشٌ، والنسبةُ إليها قُرَشيٌّ، وسُليمٌ والنسبة إليها سُلَميٌّ، وهُذيلٌ والنسبة إليها هُذَليٌّ، وثَقيف والنسبة إليها ثَقَفيٌّ، وهذه القبائلُ من أشهرِ القبائلِ التي تسكنُ مكةَ والطائفَ، ولم يسمع في نسبةِ شيءٍ منها إثباتُ يائِها.

(١) الكتاب ٢/٦٩ (بولاق) ٣/٣٣٥ هارون.

فلِمَ يكونُ شاذّاً، واستعمال القوم عليه، وهو من الكثرة والصحة بمكانٍ لا ينكر؟!

وأشير إلى مسألة أخرى أيضاً متعلقة بأسماء هذه الأعلام وهي أن سيبويه أشار إلى أن الرباعي من باب فَعيل يجمع في الكثرة على فُعلانٍ مثل كثيبٍ وكُثبانٍ وجريبٍ وجُربانٍ ورغيفٍ ورغفان(١).

وأهل الحجاز ما زالوا حتى اليوم يستعملون: القرشان والهذلان والثقفان والسلمان في جمع أفراد قُريش وهُذيل وثَقيف وسُليم، وكلها جاءت مجموعة على فُعلان، فثقيف جاءت على القاعدة من جمع فَعيلٍ على فُعلان، وأعلام القبائل الأخرى على فُعيلٍ، فتحمل فُعيلٍ على فَعيلٍ وتجمع جمعها، ويؤيدها هذا السماع، وكذلك القياس، وتكون مما قيسَ على كلامِ العربِ، ويكونُ من كلامِهم وإن لم نسمعْه بعينِه من ألفاظ عصر الاحتجاج وإنما سمعنا نظيره في البيئة الأولى نفسها، ويكون من الألفاظ التي ما زالت تستعمل في بيئاتها الأولى محتفظة ببنيتها وصوتها ودلالتها.

وجرَوا عليه في جمع القبائل الأخرى فقالوا: في سبيع سبعان وفي عتيبة عتبان وفي مطير مطران، وهكذا، إلا أنَّهم قد يكسرونَ فاءَ الكلمةِ؛ وكسرُ الأوَّلِ كثيرٌ في لسانِ القومِ من القديم حتى الآن.

المبحث الخامس:

رُسِمَت الكسكسةُ بكافٍ بعدَها سينٌ، والكشكشةُ بكافٍ بعدَها شينٌ، وهذانِ الرسمانِ جرّا إلى الغلطِ في نطقِ هاتين اللغتين؛ لأنَّ هذا الرسمَ يوهمُ قارئَهما بنطقِ كافٍ بعدَها سينٌ إن أرادَ الكسكسةَ أو كافٌ بعدَها شينٌ إن أرادَ الكشكشةَ، وهذا النطقُ غيرُ صحيحٍ، ولا يتكلَّمُ به أحدٌ من أهلِ هاتينِ اللغتينِ، وعبرت عن

(١) الكتاب ٢/١٩٣ (بولاق) ٣/٦٠٤ هارون.

الكشكشة بعض كتب فقه اللغة بحرفِ (ش) وأنه يتكوَّنُ من الحرفين التاء والشين (تْشْ)[1]، كما عبرت عن الكسكسة بالحرفين (تْسْ)[2]، وعن القزقزةِ في القافِ بالحرفين (دْزْ).

وقد ثارَ جدلٌ ـ في مجلَّةِ الدراساتِ اللغويَّةِ التي تصدرُ من مركز الملك فيصل للبحوثِ والدراساتِ الإسلامية وأرأسُ تحريرَها ـ بينَ بعضِ الباحثينَ حولَ رسمِ هاتينِ اللغتينِ، فطالبَ أحدُهما بأن ترسمَ سيناً أو شيناً، وطالبَ الآخرُ بأن ترسمَ كافاً بعدَها سينٌ أو كافاً بعدَها شينٌ، كما رسمَتْ في كثيرٍ من كتبِ النحوِ، وتدخَّلْتُ في الأمرِ، وخصَّصْتُ مقدمةَ العددِ الثالثِ من المجلدِ السابعِ لهذا الموضوعِ فقلتُ ما نصُّه: "نشرَ في المجلدِ السابعِ العددِ الأوَّلِ بحثٌ عرضَتْ فيه الكاتبةُ الفاضلةُ[3] لبعض الظواهر الصوتية في لهجةِ القصيمِ، وينشرُ في هذا العددِ تعقيبٌ للزميلِ الأستاذِ الدكتورِ إبراهيمَ الشمسان عضوِ الهيئة الاستشارية للمجلة[4]، ولن أعرضَ للبحثِ بصفةٍ عامَّةٍ، ولا للتعقيبِ عليه، وإنَّما سأقفُ معهما في مسألةٍ واحدةٍ من مسائلِه التي وردَت فيه، وهي مسألةٌ تتعلَّقُ بالرسمِ، وعلى وجهِ الخصوصِ كتابةُ لهجةِ الكسكسةِ، فقدْ رسمتْها الباحثةُ في المواضعِ التي عرضَتْ لها سيناً مكانَ الكافِ، واعترضَ هذا د. الشمسان فرأى رسمَها بكافٍ بعدَها سينٌ، ولي في هذا الأمرِ ثلاثُ وقفاتٍ:

---

(١) انظر: في اللهجات العربية ١٢٤– ١٢٥، فقه اللغة العربية ٢٣٤ – ٢٢٥.

(٢) انظر: المصدرين السابقين.

(٣) هي الدكتورة نوال بنت إبراهيم الحلوة، وكان بحثها بعنوان: " من الظواهر الصوتية في لهجة القصيم، مجلة الدراسات اللغوية المجلد السابع العدد الأول.

وأشير إلى أن الكسكسة موجودة في لهجة القصيم وليست خاصة بهم، بل يتكلم بها عددٌ غيرُ قليلٍ من أهلِ نجد.

(٤) انظر: مجلة الدراسات اللغوية المجلد السابع، العدد الثالث.

الأولى: نبَّه الأبُ أنستاسُ الكرمليُّ إلى أنَّ " في حروفنا مصيبة عظيمة لا تنكرُ، وهي أنَّها لا تؤدِّي النطقَ بما في لساننا من الحروفِ المعتدلة، وهي الحروفُ المتوسِّطَةُ بين الحروفِ الفخمة والحروف الرقيقة، إن كانت ممدودة، وإن كانت مقصورة.... وإذا قيل لنا: إننا ندخلُ على حروفنا بعضَ التعديلِ. قلنا: هذا التعديلُ لا يكونُ إلا بزيادةِ حروفٍ جديدةٍ، وهذا حسنٌ، وبزيادةِ الحركاتِ لتأدية الأصواتِ الموجودةِ في لساننا أو ألسنةِ الغيرِ وليستْ موجودةً في كتابتِنا "(١)، ثمَّ عرضَ وجهةَ نظرٍ فيها صعوبةٌ من جهةٍ، وغرابةٌ من جهةٍ أخرى، وليس ما ذكرَه وجهاً يمكنُ أن يعوَّلَ عليه، ولذا لم يستمر رأيُه، ولم يكتبْ له الانتشار، مع صحةِ تحديدِه للمشكلةِ، إلا أنَّه لم يكتب له أن يطرحَ حلاً لهذه المعضلة.

الثانيةُ: ما رسمتْه الباحثةُ أو ما ذكرَه الزميلُ الذي عقَّبَ عليها لا يمكنُ أن يؤدِّيَ صوتَ الكسكسة؛ لأنَّه بكلِّ وضوحٍ على الأوَّلِ سوفَ ينطقُ سيناً، وعلى الثاني سوف ينطقُ كافاً بعدَها سينٌ، وهذانِ الرسمانِ لا يؤدِّيانِ الغرضَ المرادَ من الرسمِ الصحيحِ لصوتِ الكسكسةِ أو الكشكشةِ أو القزقزةِ.

وعندي أنَّ صوابَ الرسمِ أن يجعلَ لها رمزٌ خاصٌّ بها، وهو كَتْبُها بكافٍ وتحتَ الكافِ سينٌ صغيرةٌ(٢)، للدلالة على أنَّ هذه الكافَ مشربةٌ سيناً، وصوتُ الكسكسة ليس كافاً محضة، وليست سيناً محضة،، بل بدؤه عند التدقيق كافٌ مشبعةٌ سيناً، ومخرجها بين مخرجي الكاف والسينِ، وهذا هو المسموعُ من هذه اللهجة....والذي سوَّغَ هذا هو أنَّ الرمزَ في الكتابةِ العربيةِ مقارنٌ للكتابةِ سادٌّ ما فيها من عوزٍ أو قصورٍ، وانظر هذه الرموزَ بوضوحٍ في كتابِ اللهِ في الرسمِ العثمانيِّ، فقد كُتِبَ فوق الصادِ سينٌ ضعيفةٌ، للدلالةِ على أنَّها تنطقُ سيناً في

(١) مجلة لغة العرب، السنة ٧، الجزء الثالث ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) هذا في الكسكسة، أما في الكشكشة فاقترح كتابتها كافاً وتحتها شينٌ صغيرةٌ، وفي القزقزةِ قافاً تحتها زايٌ صغيرة.

بعضِ القراءات،، وانظر رمزَ التنوينِ إذا جاءَ بعدَه حرفُ الإقلابِ الباءُ، فقد جعلوا الضمةَ الثانيةَ التي تشير إلى التنوين ميماً للدلالة على أن التنوين يقلب باءً[1]، وكذلك جعلوا فوقَ النونِ إذا وليها الباءُ ميماً للدلالةِ على ما سبق[2]"[3].

والذي دعاني إلى هذا أنَّ الرمزَ سوفَ يحلُّ المشكلةَ، كما أنَّ عملَ ذلك ميسَّرٌ مع التقنيةِ الحديثةِ، فها هي اللاتينيةُ تصير إلى حروفٍ مركَّبةٍ في كتابةِ الأعلام، وذلك ممكنٌ، كما أنبِّهُ إلى أنَّ الرمزَ إذا كانَ فوقَ الحرفِ فهذا يعني أنَّ واحداً منهما بدلٌ من الآخرِ، أما وضعُه أسفلَ الحرفِ فهذا يعني المزجَ بينَهما، والبدءُ بالصوت الأصليِّ الأوَّلِ منهما.

ختاماً:

هذه بعض وقفاتٍ مع كتابِ سيبويه أملتها صحبةٌ للكتابِ، ونظرٌ في بيئاتٍ عربيةٍ ما زالتْ تتمتعُ بخصائصِها اللغويةِ الرائقةِ، مع متعةِ تطبيقِ ما سُجِّلَ في القرن الثاني الهجري على ألسنةِ أعرابٍ لا يحسنونَ التكلفَ، ولا يعرفونَ غيرَ البساطةِ والفطرةِ التي عليها جبلوا.

كما أنَّ بعضَ هذه النظراتِ أملي تصحيحاً لعددٍ من الأصواتِ التي سجلَها في الكتابُ، وقد دوَّنت على نسختي شيئاً من هذا على تباعدٍ في الزمن، وارتباطٍ بالنصوص العربية.

والحمد لله ذي الفضل والإنعام، وأصلي وأسلم على محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه.

---

(١) انظر هذا الرسم في نحو قوله تعالى: (أليم بما كانوا) البقرة ١٠.

(٢) انظر هذا الرسم في قوله تعالى: (من بعد ميثاقه) البقرة ٢٧، ومثله كثير.

(٣) مقدمة رئيس التحرير، مجلة الدراسات اللغوية مج٧ ع٣ ١٤٢٦هـ.